

حديث عن دمشق

للأستاذ علي الطنطاوي

—>>><<<—

دخلت مخزننا أمس اشتري منه شيئاً ، فسمع لهجتي الشامية شيخاً ثم كان هناك ، أبيض الشعر كأن رأسه ولحيته الثنامة ، فالتفت إلي وقال :

— أنت من دمشق ؟

— قلت : نعم .

فسطع على وجهه نور ، وبرق في عينيه بريق ، وبدت على جبينه ظلال ذكريات حلوة ، مرت في رأسه ، وأخذ يبدى هاشاً لي باشاً بوجهي ، فأتمدني ممة ، وقال لي :

أهلاً بك ، أهلاً وسهلاً ، تشرفنا يا ولدي ، فتعال . تعال حدثني عن دمشق ، فقد طال عنها ابتعادي ، وزاد إليها اشتياقي ، حدثني عن سهلها وجبلها ، عن غوطتها وربوتها ، عن (الميزان) .

الأيزال الميزان مثابة الطهور ، ومعيد الجمال ، وجنة الدنيا ؟ الأيزال السراة والتجار يصلون الصبح كل يوم ويخرجون إليه ، يقضون فيه حق النفس بالتأمل ، كما قضاوا في المساجد حق الله بالصلاة ، فيجمع الله لهم الجنتين ، ويمطيهم نعيم الدارين ؟ الأيزال زاخراً بخلق الأحباب ، وجماعات الصحاب ، عاكفين على (سماورات) الشاي الأخضر (وسكي) السلمين ، يشرفون على (قنوات) و (باناس)^(١) وهما يختران على المدوة الدنيا متعاقبين متخاصرين قمل الحبيبين في غفلة الرقيب ، يمشيان حاليين خلال الورد والقل والياسمين ، كزوجين في شهر العسل ، يظهران حيناً ثم تشوههما

الخلوة ، فيلقيان عليها حجاباً من زهر الشمس والدراق والرمان ، وعلى المدوة القسوى زوجان آخران حبيبان ، يعضيان يتناجيان ويتخالسان القبل : (يزيد) و (تورا)^(١) ؟ و بردي الأيزال يدب في قرارة الوادي على عصاه ، ينظر باسمًا إلى بنيه ثم يلوى عن مشهدهم بصره ، وينطلق في طريقه لا يبالي . عاف الحب وملّ الغرام ، وعلمته تجارب العمر ، أن كل ما في هذه الحياة باطل ، إلا ذكر الله والعمل للأخرة ، كله لب وهو ومتاع زائل ؟

(١) من فروع بردى البجة .

وقاسيون الجدّ المبقرى الذى عاش عشرة ملايين سنة وما انفك شاباً ، وشاخ ابن أخيه بردي ولم يشخ ، الأيزال قاسيون قائداً قعدة ملك جبار ، قد رفع رأسه ومدّ ذراعين له من الصخر ، فأحاط بهما دمشق وغوطتها ، من الروبة إلى برزة ، ووطأ لها ركبته فنامت المدينة عليها ، كما تنام الحبيبة إن أضناها الناس على ركة الحبيب ، واحتمت الصالحية بصدرة كما يحتمى الطفل الوليد بصدر الأم الرؤوم ؟ والشمس الأيزال الشمس تضحك لبردي وأبنائه ، وتستخم أنوارها في مائه ، وتسبح أشمتها في سماه ؟

و (صدر الباز) و (مصطبة الأمباطور) و (السوفانية) و (الشاذروان) ؟ حدثني عنها ... حدث عن دمشق ، الأيزال الناس يعيشون في دمشق للخير والجمال ؟ الأيزال التجار يخرجون من صلاة العصر ، فيمقلون دكا كينهم ويمضون إلى بيوتهم ، إلى أولادهم وأهلهم ، ثم يتمشون النرب ، ويؤتمون الساجد فإذا صليت المشاء خرجوا ، فنه من عاد إلى داره ومنهم من ذهب إلى المدرس ومنهم من مشى إلى (الدّور) ...

قل لي : الأيزال (الدّور) يجمع الإخوان المتآلفين ، والأحبة التصافين ، يسمرون كل ليلة في منزل واحد منهم بنشدون الأشمار ويدوقون النوادر ، ويروون المضحكات ، ويطالمون الكتب ، ويتجادبون الحديث ، ويأكلون الوان الحلويات ؛ وبشربون الشاي ، ثم ينصرفون إلى دورهم ، وقد استمتعوا أوفى ما يكون الاستمتاع ، وسروا أكثر ما يكون السرور ، وما غشوا قهوة ، ولا أمّوا ملهى ، ولا جالسوا غريباً ، ولا أتوا محرماً ، ولا أنفقوا في غير وجهه مالا ؟

الأيزال منازل المشايخ في (زقاق النقيب) و (حمام أسامة)^(١) و (القيصرية) معاهد إرشاد ، ومدارس علم ، ودارات ملوك ؟ قل لي : من بقى من تلك الأسر العلية ؛ آل حزة وآل عابدين والطنطاوي والمطار والحناني والطبي والشطى والأسطواني والكزبرى والمهادى والمحاسنى والنينى والخطيب ؟ الأيزال فيها العلماء الأعلام أم تنكب الخلف طريق السلف ، واستبدلوا الدنيا بالدين ، والمال بالعلم ، والمنصب بالتقوى ؟ والعلماء الأيزالون أعزة

(١) عامة أهل الشام يسونه حمام ساهه بالامالة وخاصهم يظنونهم حمام ساسه ولا يدرون من ساهه هنا ، والحقيقة أنه منسوب لى البطل المشهور أسامة بن منقذ .

فلا تفتح إلا لقاصد بيته ، أو ذاهب في حاجة مشروعة ؟
والأحياء ! ألا يزال في كل حي عقله وسادته ، يسمون
لغيره ، ويمينون عاجزه ، ويسعدون فقيره ، وبأخذون من فضل
مال الغني ما يسدّ خلة المحتاج ، وإذا رأى أحدهم غريباً في الحى
سأله من هو وما يكون ، فلا يدخل الحى إلا لرجل شريف . وإن
شاهد امرأة متبرجة تصحها وزجرها ، وبحت عن وياها ليحجمها .
وإن علم بأن داراً تركب فيها فاحشة ، عقد مجلساً فدعا المؤجر
والمستأجر وكانت المحاكمة التي لا تؤدى إلا إلى منع الفاحشة و
غير ظم ولا عدوان ، فكان الحى كله كالأسرة الواحدة ، وكان
البلد مجموعة أسر كلها خير فاضل نبيل ؟

ألا يزال الناس على وئام وسلام ، فلا نزاع ولا خصام ،
يعرف كل منهم حقه فلا يطلب إلا أقل منه ، ويعرف ما عليه
فلا يقصر في أدائه ، وإن اختلفوا رجعوا إلى العالم ورضوا بحكمه
لا يعرفون المحاكمة إلا إن استحك الخلاف ، وقلما كان
يستحك الخلاف ؟

ألا يزال القاضى الشرعى مرجع كل خصومة ، ومصدر كل
حكم ، يحكم في كل قضية بشرع الله ، فلا تطويل ولا تأجيل ،
ولا مساوغين ولا عمامين^(١) ؟

ألا يزال كل ما يحتاج إليه الناس يصنع في دمشق ، فلا
يأكلون إلا حاصلات بلادهم ، ولا يلبسون إلا نسيج أيديهم ،
ولا يتداوون إلا بعشب أرضهم ، لا يذوقون أموالهم إلى عدوهم ،
ولا يعيتونه بها على أنفسهم ؟

ألا يزالون سمداء راضين ، قد انصرف العالم لعلمه ، والتاجر
لتجارته ، والطالب لدرسه ، والمرأة لبيتها ، لا يشتغل أحد بغير
شغله ، ولا يدخل فيما لا يعنيه ، قد تركوا السياسة لتفر منهم
أخلصوا لهم فوثقوا بهم ، ورأوا أمانتهم فأعطوهم طاعتهم ،
ورأوهم لا يسرقون مالهم ، ولا ياكلون عدوهم ، ولا يضيعون
مصالحهم ، فلم ينفسوا عليه زعامتهم ، ولا ضيقوا عليه مكانتهم ؟

قلت للشيخ : منذكم فارقت دمشق يا سيدى ؟
فتهد وقال : منذ سنة ١٨٩٧ ، فارقتها شاباً ، ولم أدخلها
بعد ذلك أبداً .

(١) مفرقة بإساق المحامين ؟ فقد جرتكم الفاقية ليس إلا ...
وحقكم على الشيخ المحدث لا على أنا .

بالدين ، يمرضون عن الملوك فيسمى إلى أبوابهم الملوك ، ويزهدون
الدنيا فتقبل عليهم الدنيا ، ويهربون من الولايات والنصاب
فتلحقهم النصاب والولايات ؟ ألا يزال الناس يسكفون في دمشق
على العلم لا يريدون به إلا الله والدار الآخرة ، يشون لذلك ركبهم
ويحيون ليلهم ، ويكدون نهارهم ، ويقنعون في أيام الطلاب بما سد
الرمق ، وحمل الجنب ، وستر المورة ، لا يسألون عما غاب من
ذلك أو حضر ، قد فكروا في غيره ، وأقبلوا على سواه ، فكان
العلم أملهم ، وكانت المطالمة شغلهم ، وكان ثواب الله مبتغاهم ، قد
صغرت الدنيا في أعينهم حتى إنهم لم يروها ليتكالبوا عليها ،
ويذلوا من أجلها ، و(يضر بوا) عن التلم إن لم يصلوا إليها ؟ ألا تزال
هذه المدارس عامرة ، يحنها الطالب ؟ فينام في غرفها ، ويستمتع
من مشايخها ويأكل من أوقافها ، ويجعلها دنياه لا دنياه له وراء
جدرانها : العمرية والمرادية والتورية والبادرانية والتقليجية ودار
الحديث وجامع التوبة وباب الصلى والدقاق ومدرسة الخياطين
وأمتالها . ألا تزال زاخرة بالطلاب عامرة بالعلم ، عاملة للإصلاح ؟
ومنازل دمشق أ لا تزال تلك المنازل الواسعة الصحون ،
ذات الظل والماء ، والبرك والنوافير ، والأشجار والزهور ،
والدوارين والمجالس ، والصيانة والستر ، فهي من خارجها محازن
تبين ، ومن داخلها جنات عدن ، وهي صيف ومشتى ، وهي
مسكن وملهى ، وهي دار وبستان .

ألا تزال في دمشق الأسرة كلها تمشي في المنزل الواحد : الجد
والأب والأعمام والأولاد ، ونداؤهم وأولادهم ، ثم لا تجد خلافاً
ولاشقاقاً ، ولا دسّاً ولا كيداً ، الصغير يوقر الكبير ويطيحه ،
والكبير يرحم الصغير ويحبه ، وكل يؤثر على نفسه ، ولا يحب
لغيره إلا ما يحب لها ؟

ألا تزال المرأة لبيتها وزوجها ، لا تقيس الطرقات ، ولا تقصد
الأسواق ، ولا تتعاد منازل الخياطات . إن احتاجت شيئاً اشتراه
لها بعلمها ، وإن أرادت زيارة أهلها ذهب معها ، وإن اشترت
ثوباً خاطته بنفسها ، والحجاب سابق ، والشهوات مقموعة ،
والزواج شامل . لا يبلغ الولد عشرين إلا وله ولد ، ولا تصل
البيت إلى الثامنة عشرة إلا ولها ولدان ؟

والبوابات ! هل زالت البوابات ، التي كانت تطلق كل ليلة
بعد العشاء وتمسد الطرقات في وجوه لصووص الأموال والأعراض

عواطف مسجوعة :

فلاح مصر ...

فلاح مصر أسخى على أهلها ، من نيلها ؛ فالتبيل
يجود بجانها ، وهو يجود بدمائه ؛ خالماً شبابه على القبراء ،
ليراها جنة خضراء !

فلاح مصر جندي لايسفك الدماء ، ولايهدم البناء ؛
جندي يعمّر ... ، ولا يدمر ؛ جندي يتفانى ... ، ولا
يتواني ؛ جندي متصل الزمات ، في السلم والأزمات ؛
فكل جيد يتضائل أمام جده ، وكل فرد — وإن علا —
يميش من ثمرات كده .. ! معروفه بضمير بلاده ، ونعمته
في كل عنق قلاده ... !

فلاح مصر هو — وحده — الذي يشبه الناس
شكلاً ونفساً ، والحديد فعلاً وبأساً . وهو — وحده —
الراضي بالقليل ، الذي لا يبنى جزاء سوى القوت الضئيل ؛
وإلاً فن سواه ، يُلقي في التراب قواه ؟ ومن غيرهِ ،
يفيض خيره ، بعد أن يزرع الجليل في الترى ، ويسق بالدرق
قبل الماء حقول القرى ١٩٢ لو أن للأرض لسانا
لأنت عليه ، ولقبّات يديه ؛ ولكن الإنسان ، يمجّد
الإحسان !

فلاح مصر صبور لا يخشى الهجير ، ولا يفر من
الزمهرير . يبكر والمترفون في الشرف ، لا يشاركهم
الراحة والترف . من شيمة التواضع والإيثار ، في اليسر
والإعسار . فتراه خشنا في جسمه وعزمته ، في ثوبه
ولعنته ، في بيته وعيشته لينا في عطفه الرائع ، وقابه
الطائع ، وحقه الضائع ... !

ليتنى ياسيدي الفلاح الكريم ، أملك ما أقدمه اعترافا
بفضلك العظيم ، لم أملك سوى الكلام ، فمليك السلام !
حامد بربر (الزنكلون)

فرحت الشيخ أن أجمعه في أحلى ذكرياته ، وأن أطمس في
نفسه أجمل صور حياته فتناظفت فودعته ، ولم أقل له شيئاً ، وماذا أقول ؟
أقول له : إن أهل الشام قد انصرفوا عن صدر البار
والميزان والصوقاية والشاذرون وأهملوها حتى صارت مرابيل ،
لأنهم آثروا عليها التباسية والمفاها وشهر راد وبأدى الصفا ؟
وأهم هجروا منازلهم التي كانت جنات ، ليسكروا كالإفريج
في طبقات كأسها سجون أو مفارات ، وأن أبناء العلماء الأتقياء ،
صاروا من الفساق الجهلاء ، وأن مدارس العلم هدمت أو سرقت ،
وأن غرفها احتلت لتكون مساكن أو قهوات أو محادع شهوات ،
وأن ظلية العلم الديني يطلبونه للنصاص والمراتب والأموال
والرواتب ، وأن الأسر انصدع شملها ، وتفرق جمعها ، وأن النساء
ملأن اليوم الطرقات ، وأمنن المخازن والسينات ، وعانرن الشبان
في المدارس والمهيات ، وأن البنات كسدن في البيوت ، لما آثر
الشباب الطموح على الزواج ، والسفاح على النكاح ، وأن الأحياء غلب
عليها سفهاؤها ، وضعف عن حكمها عقلاؤها . وأن الناس اختلفوا
وتنازعوا ، وفشا فيهم النش والخداع ، وأن المحاكم هجرت تسرع
الله وحكمت بقوانين فرنسا . وأن الناس تركوا أشغالهم واشتغلوا
بالسياسة . وأن الزعماء طلبوا المال والجاه ، وآثروا مصالحهم على
مصالح الناس . وأن الموظفين غابت عليهم الرشوات والبراطيل
والسرقات ، وأننا تركنا مصنوعات بلادنا وكرهنا أزياءها ،
ونملقنا بأذنان الغريين ، وأعطينا أموالنا . وأنه قد ارتفع
الوفاق وحل الشقاق ، وذهب الرخاء وجاء السخط ، فالرجل
يختلف أبدأ مع زوجته ، والأب ينازعه ابنه ، والشريك يسرقه
شريكه ، وليس فينا راض ولا قانع ولا سعيد ، ما فينا إلا شاك
بالك ، كاره الحياة ، متمن الموت ... ثم إننا لم نحس أن هذا كله
من لعنة هذه المدينة القربية ، ومن ثمراتها المرة التي لا يمكن أن
تثمر غيرها ...

ولكن لا ، فإن في دمشق خيراً كثيراً ، لا يعرف خيرها
إلا من يعيش في غيرها ، إن دمشق التي يصفها الشيخ لم تمت ،
ولا تزال تتردد ذماؤها ، فإما أن تنشأ (رابطة العلماء) وبعدها
الإخلاص بالقوة حتى تنقذها ، وإما أن يطلب القضاء ، فيموت
المريض تحت يد الطبيب ...

وان تموت دمشق الإسلامية بحول الله أبدأ !

علي الطنطاوي